« وداعا يا غولساري » وفي مثل هذه الجملة يكمن مفتاح ادب الكاتب · لقد كانت تأسره قوة الصلابة الاخلاقية في روح الرواد اللينينيين الاوائل الذين قاموا بأكبر ثورة في التاريخ ، ودحروا الاعداء وحطموا الفاشية ، والذين ابوا ان ينهزموا امام الكوارث الطبيعية او النذالة البشرية ، والذين كانوا يعتبرون الخوف احط الصفات الانسانية ، والموت اخا حنونا في سبيل ما يعتقدون ·

انها الام التي فقدت كل اولادها في الحرب في « ارض الام » تقف ثابتة فوق ارضها رافضة ان تتحطم روحها ، مفكرة في المستقبل · انه ذلك الجندي نصف المتعلم في « المعلم الاول » الذي وقف ضد التقاليد ، وحمى اكاديمية المستقبل ، وانتزعها من زوجها الضاري الذي اشتراها ليعذبها كل يوم ، وارسلها الى المعهد لتتعلم ، وابى ان يتراجع رغم الجروح التي المت به ، والعذابات التي انزلها به الزوج القاسي ومعاونوه · انه « تاناباي » في « وداعا يا غولساري » ذلك الذي لم تأخذه بأخيه رأفة فنزع ملكيته مع اندلاع الثورة ، وحارب الهتلريين ست سنوات ثم عاد ليرعى الاحصنة الشياة في اعالي الجبال في حال جحيمية ملأى بالصراع الضاري مع الطبيعة ومع المترهلين وراء مكاتبهم الدافئة يصدرون الاوامر ويعنفون · انه الطفل في « السفينة البيضاء » الذي يترك في نفوسنا تأثيرا عاصفا بنهايته الفاجعة كرمز لمحاولة قتل الطهارة والنبل ·

بطل ايتماتوف هو « انسان العمل » حسب تعبيره هو ، انه تجسيد الواقعية الاشتراكية التي اعادت بناء الحياة الاجتماعية « حين توجهت الى تصوير اولئك الناس الذين يعتبر عطاؤهم الابداعي ينبوع الحياة · ان عظمة الرجولة التي يظهرونها بكامل شكل حياتهم تتضمن الفلسفة الاعمق والانسانية حقا ، كما تتضمن شاعرية الاحساس التي لا يبلغها الانسان بواسطة التفكير المجرد الخيالي ، بل نتيجة النشاط الخلاق والعمل الدؤوب ، فانسان العمل ـ ذلك هو الشاعر بالمعنى الحقيقي للكلمة » (١) ·

□

كان من الممكن لهذا الكاتب الناشيء ان يقنع بريبورتاجاته وقصصه المرضي عنها ، وبهذه الرحلات التي لا تنتهي بين الجمهوريات ، ولكن قلبه المفعم شعرا وحبا وأسى ، وطموحه لان يعبر للناس عن كل تجربته الغنية ، دفعاه لان يترك المزرعة التجريبية لتربية المواشي ، بعد ان عرف كم هو عدد العروق النافرة في الحصان وهو ينطلق ، وسمع صوت الحليب وهو يغلي في الضروع المنتفخة ، وتلمس بيديه دقات قلب الحملان المبللة وهي تستقبل العالم ، واستطاع ان يفكر ويرى ويشم كالحصان الاصيل والنعجة المسالمة ، وحمل معه اصوات الريح وهسيس الثلوج وجلال الجبال وصمت السهوب ، وغضب العواصف ، حمل معه هذه الزوادة الكونية وذهب الى موسكو ليتم دراسته في المعهد الادبي سنة ١٩٥٨ وهي نفس السنة التي ظهرت فيها قصته « جميلة » ···

جميلة الفتاة الساحرة السمراء ذات العينين السوداوين والجدايل المضفورة المتوثبة كمهر بري ، المرحة النشيطة والمشاكسة ، لم يكن قد مضى على زواجها من الراعي صادق سوى اربعة اشهر عندما ذهب زوجها الى الحرب · وصادق هذا جامد الشعور ومحافظ على التقاليد البالية ، فهو رغم اعجابه بزوجته فانه يعتبرها ، كما هي العقلية القرغيزية القديمة ، متاعا من امتعة البيت اقل مرتبة من الحصان والنعجة ، وها هو صادق يرسل من الجبهة الرسالة تلو الرسالة يبدأها باجلال والديه والسؤال عن الاقرباء والحيوانات